صفحات هامة في تاريخ ليبيا

سليمان الباروني: حلم تحقيق إمارة مستقلة في الجبل الغربي ومعركة الأصابعة 1913 م

بقلم فرانشيسكو كورو

الترجمة والتعليق: للدكتور ابراهيم أحمد المهدوي

كلية الآداب والتربية - جامعة قاريونس

صفحات هامة في تاريخ ليبيا [1]:

سليمان الباروني:

حلم تحقيق إمارة مستقلة في الجبل الغربي ومعركة الأصابعة 1913 م

لقد استطاعت القوات الإيطالية احتلال الإقليم الطرابلسي بالكامل [استناداً إلى رسم الحدود الذي أقرته الحكومة الفرنسية مع إيطاليا] هذا كما استطاعت إيطاليا تهدئة الإقليم، لهذا كان من الضروري جداً إعادة النظر في الستة والعشرين عاماً الماضية التي مرت على احتلال إيطاليا للإقليم الطرابلسي.. تلك السنون التي تبدو موغلة في الماضي البعيد.. إلاّ أنها كانت تحوي أحداثاً تاريخية هامة جديرة بالاهتمام والبحث. خاصة أن معظم تلك الأحداث كانت

---

(1) F. Coro. Una Interessante Pagine Di Storia Libica: Suleiman El-Baruni: Il Sogno Di un Princpato Berbero e La Battaglia Di ASAABA (1913).

نشرت مقالة فرانشيسكو كورو في حوليات إفريقيا الإيطالية.

Gli Annali Dell'africa Italiana Anno 1 - Vol. III - IV. DIC MCMXXXVIII, Anno XVIII [DIC 1938 - 17]. PP. 957 - 69.

يعتبر فرانشيسكو كورو كاتب هذه المقالة أحد الضباط الطليان الذين شاركوا منذ البداية في قمع حركات الجهاد المتتالية بالجبل الغربي، فقد كان مكلفاً بالإضافة إلى ذلك بالاتصالات والمباحثات السياسية مع المجاهدين، فهو يعتبر شاهد عيان، كما قام أيضاً باحتلال نالوت 6 يوليو 1922 م والقيام بدور هام في تدبير مكيدة أعدم بموجبها خليفة بن عسكر. (المترجم).

مليئة بالأعمال الجريئة والطموحة من أجل الوصول إلى مستقبل زاهر للمستعمرة، ففي شهر أكتوبر الماضي (1937). كان قد مضى ستة وعشرون عاماً على توقيع معاهدة أوشى للسلام بين إيطاليا وتركيا.. إن ذكرى توقيع تلك المعاهدة بين البلدين يحمل إلى الأذهان أحداث تلك الفترة الزمنية المليئة بحركات التمرد والثورة والعصيان وترويج الأفكار المغرضة التي كانت تحرّض السكان المحليين على مقاومة القوات الايطالية.. إن مصدر تلك الأفكار المناوئة للإيطاليين التي كانت تحرض المواطنين أيضاً على حمل السلاح قد كان بدون شك يرجع إلى بعض الشخصيات المحلية ذات النفوذ القوي على بعض مناطق الإقليم الطرابلسي والتي كان من بينها منطقة جبل نفوسة الذي يسكنه أغلبية الأباضية الذين يستقرون في الجزء الغربي من الجبل المذكور بزعامة سليمان الباروني الذي كانت توجد بينه وبين الحكومة الإيطالية [حكومة طرابلس الغرب] مراسلات رسمية تبودلت خلال الحرب الإيطالية ـ التركية، أما بعد معاهدة أوشى إلى ما قبل معركة الأصابعة فقد جرت اتصالات مكثفة مع سليمان الباروني زعيم جبل نفوسة وحكومة المستعمرة وذلك لاعتقاد السنيور بيرتوليني BERTOLINI وزير المستعمرات الإيطالية بأهمية تلك الاتصالات الشخصية والمفاوضات الرسمية.. وليس كما يعتقد البعض من أن تلك المفاوضات والاتصالات كانت من أجل مناقشة المقترحات التي قدمها سليمان الباروني إلى الحكومة الإيطالية لغرض الحصول على الاستقلال الذاتي لمقاطعة الجبل الغربي التي كان يسكنها الأباضية...؛ ذلك لأن فكرة الباروني لم تبدُ منطقية يمكن تحقيقها في الواقع.. لهذا فإن الحكومة الإيطالية قد اعتبرتها مجازفة لا تمثل سوى طموح يسعى الزعيم سليمان الباروني إلى تحقيقه... إلاّ أن معركة الأصابعة استطاعت وضع حد حاسم له.. وحالت دون تحقيق طموحاته الشخصية بأن قامت الحكومة الإيطالية بطرابلس بفرض سيطرتها الكاملة على كل من الجبل الغربي والقبلة.

فمن أجل استعادة أحداث الستة والعشرين عاماً الماضية.. تلك الأحداث التاريخية الهامة التي كانت تمثل صفحات مجهولة في تاريخ احتلال الإقليم

الطرابلسي؛ قد قمت شخصياً بالقيام بدراسة جميع المستندات الرسمية المتعلقة بتلك الفترة الزمنية وفحصها بالإضافة إلى قيامي بتجميع كافة المعلومات اللاّزمة عن الأحداث التاريخية الماضية من الشخصيات البارزة التي كانت تعيش خلال تلك الفترة، وقد كان من بين أولئك الزعيم سليمان الباروني نفسه [كنت على اتصال دائم به خلال عامي 1920 ـ 1921 م وذلك باعتباري ضابطاً مكلفاً بالمهمات السياسية]، كذلك قمت بدراسة كافة الأحداث التي كانت تعتبر من أهم العوامل الرئيسية خلال تلك الفترة الزمنية وتمحيصها، هذا بالإضافة إلى مراسلاتي واتصالاتي الشخصية مع بعض المسؤولين القياديين الإيطاليين في كل من طرابلس وروما. إن جميع تلك الوثائق الرسمية والشخصية التي أشرت إليها ساعدتني في الواقع على جمع وترتيب لكافة الأحداث التاريخية التي وقعت خلال تلك المرحلة الحاسمة من الاحتلال السياسي للمستعمرة.

شخصية الباروني عبر الماضي:

تعتبر شخصية الباروني(2) من الشخصيات المعروفة لكل أولئك الذين عاشوا في مدينة طرابلس خلال فترة الحرب 1911 ـ 1913 م، فسواء كان ذلك أيضاً خلال الحرب العالمية أوْ خلال السنوات الممتدة من 1910 ـ 1921 م، حيث كان الباروني يعتبر شخصية بارزة لعبت دوراً نشطاً في جميع الثورات المتلاحقة التي حدثت في المستعمرة طيلة تلك الفترة الزمنية. وينحدر الباروني من قبيلة البارون التي هاجرت من عُمان إلى جبل نفوسة حيث ظلّت تتمتع بكل احترام وتقدير من جميع سكان الجبل. أما والده فهوالشيخ عبد الله بن يحيى بن أحمد الذي توفي في 1913/4/16 م عن عمر يناهز 92 عاماً أثناء رحلته من جادو إلى كاباو عندما قامت القوات الإيطالية بالزحف المسلح على جبل نفوسة

(2) يعتبر سليمان الباروني أحد الزعماء الأربعة الذين اجتمعوا بجامع المجابرة بالقصبات يوم السبت 13 صفر 1333 هـ الموافق 16 نوفمبر 1918 م حيث تم الاتفاق على ضرورة قيام الجمهورية الطرابلسية التي كان أول رئيس لها وقد توفي سليمان الباروني خارج الوطن أثناء قيامه بمهمة سياسية بالهند في مدينة بومبي يوم 1 مايو 1940 م وبقي مدفوناً هناك حتى تم إرجاع رفاته إلى ليبيا في يوم 1972/12/30 م. (المترجم).

لاحتلاله.. وقد ترك الشيخ عبد الله من الأبناء بالإضافة إلى سيلمان الذي يعتبر أكبر إخوته اثنين هما أحمد ويحيى وكلاهما قد رافق أخاه الأكبر سليمان في خوض جميع الأحداث السياسية المتلاحقة في الإقليم حتى عام 1913 م عندما قرروا العيش بسلام مع الحكومة الإيطالية حيث شغل أحدهم ويدعي أحمد منصب قاضي بنالوت.

أما الأب الشيخ عبد الله فإنه لم يشارك مطلقاً في حركات التمرد والبلبلة التي كان يقوم بها ابنه سليمان، بل كان على العكس من ذلك رجلاً متعلماً يعتبر من أشهر المثقفين بين أباضية الجبل. فقد كان بالإضافة إلى ذلك يتمتع بكل احترام وتقدير من أتباع مذهب الأباضية في كل من وداي مزاب (الجزائر) وجربة (تونس) بالإضافة إلى ما يتمتع به من شهرة واسعة بين مالكية سكان إقليم طرابلس الغربي، هذا وقد ولد سليمان الباروني في جادو عام 1872 م. وأكمل تعليمه بجامع الزيتونة في تونس ثم التحق فيما بعد بالجامع الأزهر في القاهرة. وقد قام سليمان الباروني بزيارة لمعظم بلدان الشمال الإفريقي.. وقد كان الباروني (سليمان) منذ صغره يحمل بين جوانحه ميولاً سياسية طموحة كما يذكر رفاقه من خلال المحاولات المتعددة التي قام بها من أجل السيطرة وحلمه في تحقيق إمارة مستقلة.. إن تلك المحاولات الجريئة كانت في الواقع تعكس كثيراً من النقاط الغامضة في شخصية سليمان الباروني الطموحة.

وقد علمت الجندرمة العثمانية بأفكاره ومشاريعه الطموحة في بداية شهر إبريل عام 1899 م فقامت بمداهمة منزل والده في جادو وتفتيش منزل صديقه الحميم موسى قرادة في يفرن، كما تم استدعاء سليمان الباروني وصديقه موسى إلى طرابلس للمثول أمام السلطة العثمانية حيث تم معهم تحقيق لم يسفر عن أي نتيجة تذكر، ولكن فيما بعد استطاعت الجندرمة العثمانية ضبط أحد الصناديق المملوءة بالكتب التي كان قد أرسلها سليمان الباروني إلى طرابلس قبيل عودته إلى البلاد، فقامت الجندرمة بتفتيش الصندوق المذكور وعثرت على عدة رسائل كشفت عن مغامراته الطموحة وكان من بينها رسائل مغرضة حول الحالة السياسية للولايات العثمانية بالإضافة إلى منشور يحمل نداءً موجهاً إلى سكان

الجبل بتوقيع «السلطان سليمان» يدعوهم فيه إلى الثورة، مما جعل الحكومة العثمانية تأمر بالقبض عليه ومعاقبته بالسجن لمدة خمس سنوات، إلاّ أن صديقه موسى سافر على رأس وفد من الأعيان المحليين إلى القسطنطينية لمقابلة السلطان، وبالفعل فقد حصل منه على أمر بالعفو عن صديقه سليمان الباروني، هذا وقد تم القبض على سليمان الباروني مرتين خلال الفترة الزمنية الواقعة بين 1905 ـ 1910 م بواسطة السلطات الحكومية العثمانية بطرابلس لأسباب سياسية ضد الحكومة منها القيام بتنظيم ثورة أهلية في الجبل التي كان الهدف من ورائها تأسيس إمارة مستقلة في جبل نفوسة.. ولقد كان سليمان الباروني دائماً يردّد أقوال كبار أئمة الأباضية وأمراء الرستمية بتاهرت في مراسلاته وكتاباته.. وفي عام 1905 م كانت السلطات الحكومية العثمانية تنوي القبض عليه مرة أخرى.. لكنه علم بذلك الأمر واستطاع الفرار إلى مصر حيث اتصل بكثير من السياسيين الذين يعيشون في المنفى وباللاّجئين من الشباب الأتراك كذلك الذين كانوا قد فروا من اضطهاد حكم السلطان عبد الحميد. وفي مصر قام الباروني بتأسيس صحيفة «الأسـد الإسـلامـي» التي استمرت في الصدور لبضعة أسابيع قليلة ثم توقفت، وخلال إقامته في مصر استطاع سليمان الباروني الانتهاء من تأليف كتابه «الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الأباضية» الذي أوضح فيه أفكاره وطموحاته الداعية إلى تأسيس إمارة مستقلة في الجبل.

وخلال عام 1907 م عاد الباروني إلى طرابلس حيث عاش في هدوء وبدون إثارة قلاقل للحكومة العثمانية حتى عام 1911 م وبالتحديد إلى اليوم السابق للحرب الإيطالية التركية حيث قام بإرسال تلغراف من فساطو إلى الوالي العثماني بطرابلس يعلن فيه عزمه على تحمل مسؤولية الدفاع مع بقية محلات الجبل وعن مدن الإقليم الطرابلسي ضد الغزاة الإيطاليين.. ومنذ ذلك الحين تم تعيين سليمان الباروني زعيماً للاتحاد الوطني التقدمي الطرابلسي.. وما أن بدأ إنزال القوات الإيطالية على الساحل حتى هرع سليمان الباروني بمساعدة كل من موسى قرادة ومحمد فكيني اللذين كانا يعتبران من أصدقائه المخلصين بتنظيم المقاومة الشعبية المسلحة ضد القوات الإيطالية.. واستمر في ذلك العمل حتى

مجيء كل من فتحي بي ونشأت بي أو نشأت باشا اللذين توليا إدارة حكومة الولاية بطرابلس مما ساعدهما في تحقيق بعض النجاح في عملهما. ثم ظل الباروني يقوم بإدارة محلة الجبل حتى معاهدة لوزان إذ ارتبط بعلاقة وطيدة مع المندوب فرحات رغم اختلافاتهما الحزبية السابقة. وقد قام سليمان الباروني أثناء توليه إدارة محلة الجبل بإرسال مجموعات من الرسائل قامت بنشرها بعض الصحف العربية منها صحيفة «الزهراء التونسية» وكل من صحيفتي «العالم» و «المؤيد» الصادرتين في القاهرة.. وكانت مراسلاته مع تلك الصحف عبارة عن تمجيد للانتصارات التي تم تحقيقها بواسطة المقاتلين الوطنيين في الحرب المقدسة ضد جحافل القوات الإيطالية.

وقد استمر سليمان الباروني في مواصلة كفاحه ضد القوات الإيطالية على الرغم من الرسالة الرسمية المؤرخة في يناير 1912 م التي كانت قد أرسلها له المكتب السياسي الإيطالي العسكري من طرابلس والتي تم بموجبها الإشارة إليه بعدم فعالية استمرارية المقاومة التي يخوضها المقاتلون المحليون ضد الإيطاليين بتحريض منه بل ولم تكتفِ بذلك بل طالبته بضرورة إيقاف الحرب من أجل مصلحة البلاد.. إلاّ أن سليمان الباروني لم يلتفت إلى الرسالة المذكورة وغيرها من التحذيرات بل أجاب بإيجاز في ورقة صغيرة بعزمه على مواصلة الحرب المقدسة مسترشداً في ذلك بآيات من القرآن الكريم داعياً المسلمين إلى مواصلة الجهاد المقدس تحت ظل العلم العثماني، وقد قام أحد الصحافيين المعارضين لغزو القوات الإيطالية لليبيا بنشر الرسالة الرسمية الموجهة إلى سليمان الباروني مع إجابته المختصرة في صحيفة «الزهراء التونسية» الصادرة بتاريخ 7 إبريل من نفس السنة المذكورة.

وبعد معاهدة لوزان للسلام خضع أغلبية زعماء جبل نفوسة لسلطات الحكومة الإيطالية بطرابلس ما عدا سليمان الباروني الذي استمر في تنظيم المقاومة وقيادتها في الجبل معلناً استقلالية أراضي تلك المنطقة عن النفوذ الإيطالي.. وفي شهر نوفمبر من نفس السنة بدأ سليمان الباروني في إجراء مفاوضات مع الحكومة الإيطالية وذلك من أجل الهدف الذي كان يصبو إلى

تحقيقه. . . ولكن في الواقع استطاعت معركة الأصابعة سحق جميع أحلامه الطموحة بل الحيلولة دون تحقيق ذلك، مما جعله يهرب إلى تونس حيث قضى فيها بضعة أشهر سافر بعدها في يوليو 1913 م إلى أوربا. . ولم يعد إلى تونس إلاّ في السنة التالية.

وفي أثناء ثورة 1914 ـ 1915 م قام سليمان الباروني بالاتصال بكل من السنوسي في برقة ثم تقابل مع بعض الزعماء الطرابلسيين ويبدو أنه لم يستطع تحقيق ما كان يصبو إليه مما جعله يرحل إلى القسطنطينية ولم يعد إلى طرابلس إلاّ في عام 1916 م عندما أرسل على ظهر غواصة ألمانية لأداء مهمة رسمية بتكليف من الحكومة العثمانية. . وخلال تلك الفترة الزمنية نودي به حاكماً عاماً لطرابلس وبقية المدن التابعة لها.

وعندما تم الاتفاق على عقد معاهدة سلام في يونيه عام 1919 م، عاد سليمان الباروني إلى طرابلس لمعاودة تعبئة الجهود ضد الإيطاليين. إلاّ أن زعماء الدواخل الجدد كانوا قد خلقوا أمامه موقفاً صعباً لا يطاق أدى إلى انفجار الصراع عام 1920 م بين تلك الزعامات، مما جعل حكومة المستعمرات الإيطالية تقوم بتكليف سليمان الباروني بالقيام بمهمة رسول سلام بين الأطراف المتنازعة [الجبل والقبلة] ولكن الانتصارات التي أحرزها صديقه خليفة بن عسكر ضد زعماء الزنتان والرجبان أعادت إليه من جديد فرصة تحقيق الطموح القديم الذي كان يصبو إلى تحقيقه، ولكن ذلك كان عبارة عن وهم خادع بعد أن استطاع خليفة بن عسكر تدمير حلم الباروني نهائياً في يفرن خلال شهر مايو 1921 م، مما اضطر سليمان الباروني إلى ترك الجبل والعودة إلى طرابلس ثم السفر إلى أوربا حيث شعر بأنه لم يبق له موقع قدم واحدة بالمستعمرة، ليستقر فيما بعد في سلطنة عُمان الصغيرة بعد أن فشلت كافة خططه الطموحة في تأسيس إمارة مستقلة في جبل نفوسة. . ولكن ربما كان يعتزم العودة من جديد لمواصلة جهوده كما كان يفعل في السابق!! إلاّ أن معركة الأصابعة استطاعت إلغاء مفاوضات 1912 ـ 1913 م مما أدى بالتالي إلى تقويض كافة الأحلام الخيالية التي كان يسعى إلى تحقيقها الباروني في الجبل. . حيث أصدرت

الحكومة المركزية الإيطالية قراراً رسمياً بموجبه أعلنت فيه صراحة معارضتها الشديدة لقيام إمارة مستقلة بالجبل، ويرجع صدور هذا القرار الرسمي إلى كل من المحافظ RAGNI والكولونيل LEQUIO.

حركة المقاومة في الجبل:

بعد مضي بضعة أيام على توقيع معاهدة لوزان للسلام اجتمع بالعزيزية زعماء الإقليم الطرابلسي وأعيانه وذلك من أجل تقرير ما يجب عمله لمواجهة القوات الإيطالية وكان القائمقام نشأت بي قد اقترح على كل من سليمان الباروني وفرحات أثناء مقابلته لهما قبل الاجتماع بضرورة مواصلة الجهاد ضد الغزاة الطليان.

وعندما تم طرد القوات التركية من ليبيا، حاول الأتراك وضع كافة المساعدات اللآزمة في أيدي المقاتلين الليبيين وكانت عبارة عن معدات وأسلحة بالإضافة إلى ترك مبلغ من المال بلغت قيمته حوالى 20,000 ليرة ذهبية تركية بالإضافة إلى 50,000 جوال مليئة بالسلع الغذائية المختلفة، كما قامت كثير من الروابط المؤيدة للمقاتلين الليبيين في كل من مصر وتونس بإرسال كثير من المساعدات... ولكن رغم ذلك فقد استسلم أغلبية الزعماء والأعيان المجتمعين في العزيزية إلى الحكومة الإيطالية ما عدا سليمان الباروني فقد أصر على مواصلة الكفاح ضد القوات الإيطالية بعد أن ضمن تأكيد وعود كفلت له حصوله على مساعدات من الحكومة التركية وبقية العالم الإسلامي مما جعله يضع في حسبانه أن المقاومة سوف تنتهي بدون تحقيق أيّة نتائج إيجابية. ويبدو أن سليمان الباروني كان متمسكاً بحوافز أخلاقية محافظة تقليدية غير قابلة للتبديل.. إلاّ أنه من ناحية أخرى مهتم بتحقيق كثير من المكاسب المادية مما أدى إلى انسحاب زعماء النوائل وورفلة والمحاميد من جانبه، بينما أعلن زعماء قبائل المقارحة وأولاد بوسيف بفزان حيادهم خاصة فيما يتعلق برغبة الحكومة الإيطالية في ضمان استقرارهم داخل أراضيهم، وفي أثناء ذلك قام فرحات بمحاولة الهدف منها إقناع كثير من زعماء القبائل الاشتراك في مقاومة القوات

الإيطالية.. ولكن محاولاته باءت بالفشل فقام بإرسال تلغراف إلى موسى قرادة متصرف يفرن لعله يستطيع القيام بإقناع أعيان الجبل للمشاركة في حضور المؤتمر لكنه أجابه بأن جميع الأعيان في الجبل قد فوضوا الباروني حرية التصرف.. لكن الواقع أن كثيراً من أولئك الزعماء كانوا يفضلون الخضوع والاستسلام بدلاً من مواصلة المقاومة المسلحة ضد الإيطاليين.

وفي الواقع فقد أدت عودة سليمان الباروني إلى يفرن إلى توحيد زعماء الجبل وليس فقط زعماء الأصابعة، ككلة والهود الذين اتفقوا جميعاً على ضرورة مواصلة الكفاح المسلح ضد القوات الإيطالية حتى النهاية.. على الرغم من أن البعض من أولئك الزعماء قد عارض في بداية الأمر فكرة الباروني الداعية إلى مواصلة الكفاح.. وذلك بسبب عدم توفر الوسائل اللازمة لمواصلة المقاومة المسلحة، مما جعل الباروني نفسه يؤكد لهم ضمان الحصول على المال اللازم بالإضافة إلى كافة المساعدات الأخرى التي سوف تصل إليهم من مختلف البلدان في العالم الإسلامي وتركيا.

وبعد مضي بضعة أيام على انعقاد مؤتمر يفرن بين زعماء مناطق الجبل وصل موظف رسمي من قبل الحكومة التركية قادماً من الزاوية إلى يفرن حيث قام بتسليم موسى قرادة مبلغاً مالياً بالإضافة إلى التموين الضروري.. إلاّ أن زعماء القبائل في الجبل كانوا لا يثقون كثيراً في المتصرف بسبب أن ماضيه يدل على جشعه وعدم أمانته، لهذا فقد طلبوا من الباروني عزله من تلك المهمة حيث أسندت إلى ساسي خزام اليفرني الذي يعتبر أيضاً من أصدقاء سليمان الباروني.

وفي الواقع أن جميع مشايخ القبائل لم يقبلوا ترتيب تلك الأحداث، حيث قاموا بإرسال مضبطة يعلنون فيها خضوعهم وولاءهم للحكومة الايطالية بطرابلس.

وقد تم التوقيع على تلك المضبطة من جميع سكان الجبل الأباضية والمالكية، وحوالى منتصف شهر ديسمبر 1912 م حضر إلى طرابلس عدد كبير من أعيان القبائل بلغ عددهم ستين شخصاً ليس للإعراب عن انضمامهم إلى أولئك الذين قاموا بتوقيع المضبطة التي كانت قد أرسلت لحكومة طرابلس

فقط... بل أيضاً لمقابلة حاكم المستعمرة بهذا الخصوص، وقد كان من بين أولئك شخصيات تتمتع بنفوذ واسع في الجبل منهم: علي القبلاوي من يفرن ومحمد فكيني من الرجبان بالإضافة إلى كل من علي بن عبد الرحيم، محمد مشينوقة، محمد المحمودي وآخرون وذلك من أجل تسليم السلاح وإعلان الخضوع للحكومة الإيطالية.

وعلى كل حالٍ فإنه يمكن الإشارة إلى بعض الأسباب الأخرى التي ساعدت على حث كثير من زعماء القبائل وبعض من السكان إلى الخضوع للحكومة الإيطالية بطرابلس.. والتي كان من بينها الإرهاق والخسائر الجسيمة التي لحقت بهم أثناء الحروب الماضية.. بالإضافة إلى نقص التجهيزات اللازمة لخوض الحرب من جديد وانتشار الفقر بين سكان الجبل وبقية القبائل المجاورة.. أما الفريق الثاني الذي كان بزعامة سليمان الباروني فقد أصروا على مواصلة الكفاح عكس الفريق الأول فقد كانوا يؤمنون بمبدأ محاربة الكفار الذي كان قد اتخذه سليمان الباروني منطلقاً لمواصلة المقاومة المسلحة ضد القوات الإيطالية... وبالطبع فقد ألحق المجتمعون في طرابلس مع السلطة الإيطالية الحكومية وتأييدهم المطلق لسيطرة حكومة طرابلس على الجبل ضربة حاسمة بجميع خطط الباروني وأهدافه التي كان يسعى إلى تحقيقها بعد أن تخلوا عنه والانضمام إلى السلطات الإيطالية ولكن برغم ذلك فقد انضم إليه كل من أولاد بوسيف والمشاشية [حوالى 500 مقاتل] وذلك من أجل ضمان احترام بقية القبائل لهم،وفي أثناء ذلك طالب سليمان الباروني من محلات نالوت والزنتان التي كانت تحت قيادة خليفة بن عسكر وأحمد الصيد القيام بنزع السلاح من أيدي زعماء القبائل الذين ذهبوا إلى طرابلس لمقابلة حاكم المستعمرة.. وبالفعل فقد تم اعتقالهم مباشرة بعد عودتهم من طرابلس عدا محمد فكيني من الرجبان الذي كان يعتبر من أكثر أولئك الزعماء نفوذاً حيث تمكّن من الهروب.. ولجأ إلى مسكنه في يفرن.. مما أدى بالتالي إلى إرسال بضعة رجال مسلحين للقبض عليه هناك بدون جدوى.. ونتيجة لتلك الإجراءات الشديدة فقد ازدادت حدة الصراع بين الفريقين خاصة بعد تدخل محمد بن عبد الله زعيم

أولاد بوسيف الذي كان قد جرح خلال ذلك الصراع.. أما محمد فكيني فقد ظل حراً طليقاً حيث عاد إلى مقر إقامته السابق وذلك بفضل صديقه محمد بن عبد الله الذي أفسد ذلك التصرّف منه علاقاته مع سليمان الباروني مما أدى إلى إبعاده نهائياً عن الجبل تاركاً وراءه زعامة أولاد بوسيف لكل من أبو بكر قرزة ومحمد بن عمر، أما بقية الزعماء الذين تم القبض عليهم فلم يفرج عنهم بل ظلوا في سجن يفرن إلى اليوم الذي دخلت فيه القوات الإيطالية يفرن بقيادة الجنرال ليكوي LEQUIO. ولإزالة الشك عن بعض الأحداث الخاصة بالفترة الزمنية الأولى من دخول القوات الإيطالية للبلاد... يمكن القول إن أغلبية السكان كانوا يفضلون استقرار السلام.. ولكن هذا لا يخفي من ناحية أخرى قيام سليمان الباروني بدور نشط أدى إلى تحريض كثير من زعماء القبائل على مواصلة الكفاح ضد القوات الإيطالية من أجل تحقيق حلم تأسيس إمارة مستقلة، مما دفع كثيراً من زعماء القبائل الانضمام إليه لتحقيق ذلك الأمل المنشود الذي كان يراودهم في ذلك الوقت.. وكان من بين أولئك الزعماء هذه الأسماء:

1 ـ يفرن:

موسى قرادة، ساسي خزام اليفرني، أحمد الكور، سليمان بن ساسي، سالم البرشوشي، سالم البارودي، عيسى كوسه، محمد قرادة، عثمان بن كافون وعيسى بن يحيـى.

2 ـ فساطو:

يوسف خريبيشة (3)، محمد خليل ويوسف عبازة.

---

(3) أصبح يوسف خريبيشة مثل مواطنه خليفة الزاوي من أشهر المتعاونين الذين انضموا إلى القوات الايطالية فيما بعد. ومن الذين هرعوا لاستقبال الدوتشي موسوليني أثناء زيارته للبلاد، حيث قام شخصياً بتقديم هدية إليه هي عبارة عن «سيف الإسلام» وذلك كما يبدو في صورة التقطت له مع خليفة الزاوي بتلك المناسبة نشرت في مجلة ليبيا:

LIBIA. ANNO 1 - N. 2. TRIPOLI, MAGGIO. 1937 - XV. P. 1.

(المترجم).

3 ـ الزنتان:

أحمد الصيد وعلي الشنطة.

4 ـ كلكلة:

الفقي خليفة الأميري وخليفة بن حسين.

5 ـ نالوت:

خليفة بن عسكر، العزابي إبراهيم بوالاحباس، عبد الله نعامة وعبد القادر العيساوي.

6 ـ الرحيبات:

محمد الشين.

7 ـ بئر غنيم:

عون المحمودي.

ويمكن إضافة إلى أولئك الزعماء ذكر الولي الصالح عبد الله بن فاضل من العجيلات الذي كان يتمتع بنفوذ اجتماعي واسع على الزنتان كذلك كل من بوبكر قرزة ومحمد بن عبد الله من أولاد بوسيف. أما فيما يتعلق بتحريض السكان فقد استطاع سليمان الباروني استمالة حوالى ثلثي سكان يفرن والأصابعة وحوالى نصف سكان فساطو والهود وكلكلة والرحيبات، مع أغلبية النالوتيين والزنتان والمشاشية وأولاد بوسيف بالإضافة إلى أقلية من سكان الرجبان.

لقد حاول الباروني مع بقية الزعماء الذين انضموا إليه في مواصلة الكفاح، تأسيس حكومة مستقلة لم تحمل أيّة تغييرات فيما يتعلق بالتدابير التي كان قد اتخذها نشأت بي أثناء فترة النزاع الإيطالي ـ التركي، حيث كان قد قام القائد العثماني نتيجة لظروف الحرب الملحة بإنشاء مديريات جديدة أخرى منها مديرية الرياينة في قائمقامية يفرن وكذلك كل من مديريات الرحيبات والرجبان بقائمقامية فساطو ثم مديريات كاباو والحرابة في نالوت، حيث لم يتم تغيير

الموظفين الرسميين بل بقوا جميعاً ما عدا يفرن حيث تم تعيين ساسي خزام في منصب متصرف بدلاً من موسى قرادة الذي كان قد استقال من ذلك المنصب كما ذكرت سابقاً.

أما في فساطو فلم يرغب أحد تولي منصب عمر عراب الذي كان يشغل منصب قائمقام لفساطو أثناء الحكم التركي، لذلك فقد تم تشكيل مجلس شورى يتكوّن من الوجهاء والأعيان لإدارة شؤون فساطو، هذا وقد تم حشد المحلات المختلفة في ثلاثة معسكرات مختلفة هي:

1 ـ الرابطة: يشمل هذا المعسكر حوالى ألف مقاتل من كل من فساطو، يفرن، ككلة، ورفلة، الرياينة، الرجبان، الحرابة، الزنتان وبئر غنيم.

2 ـ الأصابعة: كان يشمل حوالى ألفي مقاتل من قبائل نالوت، الزنتان، الأصابعة، أولاد بوسيف، المشاشة، غريان، ورفلة، الرجبان، الرحيبات المقارحة (فزان) والشيامبة (تونس).

3 ـ بئر غنيم: ويشمل خمسمئة مقاتل من الزاوية، بئر غنيم والريانية.

هذا وقد بلغ مجموع المقاتلين بالمعسكرات الثلاثة حوالى ثلاثة آلاف وخمسمئة مقاتل مسلح تم تزويدهم بكافة أنواع البنادق بما فيها عدد غير محدود من بنادق بوصوانة، ومع ارتفاع تعداد المتطوعين للقتال في المحلات المختلفة أصبح من الضروري على أولئك المتطوعين الاستعداد لحمل أسلحة أولئك الذين يستشهدون أثناء العمليات الحربية.

وكان أولئك المقاتلون يتلقون مرتبات عينية تشمل تزويدهم بكميات من الدقيق والتين المجفف وكذلك التمور المجففة بصفة غير منتظمة، ولم يتلق أولئك الجنود المسلمون مرتبات نقدية شهرية ما عدا مرتب شهر نوفمبر من نفس السنة وقدره ثلاثون ليرة دفعت لكل مقاتل، أما الموظفون فلم يحصلوا على أيّة مرتبات. أما التموينات اللازمة من ذخيرة وأسلحة ودقيق بالإضافة إلى المال فقد كانت تأتي من تونس بواسطة أحمد بن جبارة الذي كان يقوم بتسليم كميات كبيرة من الأمتعة إلى الهيئة الخاصة التي تأسست في بن قردان تحت إشراف

يوسف خريبيشة الذي كان يقوم باتخاذ كافة الوسائل اللازمة من أجل توصيلها إلى معسكرات المقاتلين. أما في يفرن فقد كان هناك شخص تونسي يقوم بتشغيل مصنع صغير خاص بتعبئة المخروطات النحاسية الفارغة المستخدمة في البنادق بالمواد المتفجرة، حيث كان نفس الشخص يقوم بتلك المهمة أيضاً من قبل أثناء الحكم العثماني للبلاد.

وكما رأينا فقد اهتم كثير من الصحف والمجلات خاصة الصادرة في تونس والقاهرة بأخبار تلك الدويلة بالجبل كذلك بعض الصحف الأوربية، بل اعتبرت الصحافة العربية أن المفاوضات التي كانت جارية بين الحكومة الإيطالية وتلك الدويلة عبارة عن انتزاع لكينونة سليمان الباروني المفضلة.

المفاوضات:

تم عقد اجتماع في يفرن مساء اليوم الثامن من نوفمبر بين كل من موسى قرادة، سليمان الباروني، يوسف خريبيشة وسالم بالحاج بالإضافة إلى دستة من أعيان الجبل الآخرين، هذا وقد حضر الاجتماع كل من الكونت م. سفورزا Cont. M. SFORZA والفارس سان فيليب Cav. SAN FILIPPO أعضاء البعثة العلمية الإيطالية الذين كانوا مساجين بفزان أثناء الحرب الإيطالية ـ التركية، وقد أرسلوا إلى يفرن بعد أن تم الإفراج عنهم بموجب اتفاقية السلام التي أبرمت بين الطرفين المتنازعين.

وأثناء ذلك الاجتماع قام سليمان الباروني بتلاوة كافة المقترحات المقدمة من المقاتلين بالجبل ما عدا أولئك الذين يوجدون في غريان، العجيلات وغدامس فلم يتعرض لذكرهم، ثم طلب بعد ذلك من أعضاء البعثة العلمية الإيطالية أن يكونوا سفراء سلام لدى الحكومة الإيطالية مع إبلاغها برغبة سكان مناطق الجبل في الحصول على الاستقلال غير المشروط، فإذا لم توافق الحكومة على ذلك الشكل من الاستقلال فليكن إذن على شكل محمية مثل ما تمارسه بريطانيا على مصر، وفي نهاية الاجتماع وعد أعضاء البعثة العلمية الإيطالية المؤتمرين بتوصيل جميع مطالبهم إلى الحكومة الإيطالية.. ولكن تمت

في الواقع إعادة أعضاء البعثة العلمية إلى السجن بمجرد عودتهم إلى طرابلس في 12 نوفمبر 1912 م.

وفي يوم 13 نوفمبر 1912 م أرسل الجنرال شيانشيو CIANCIO الذي كان قد تولى منصب الحاكم راني RAGNI بالوكالة رسالة إلى سليمان الباروني [لم يرها الباروني إلا فيما بعد ـ (أكتوبر 1921 م)] حيث أعلمه فيها بأهمية كافة الأمور التي تمت مناقشتها في ذلك المؤتمر.. وأن نتائج تلك المناقشات قد أرسلت إلى روما، وقد أجاب سليمان الباروني عن تلك الرسالة في 17 ديسمبر 1912 م موضحاً عزمه على الاستمرار والتمسك بوجهة نظره حول الاستقلال وفقاً للفرمان الذي أصدره السلطان والذي يقضي بمنح الاستقلال لسكان إقليم طرابلس ورغبته في الدفاع عن تحقيق الاستقلال بقوة السلاح، كما أنه أرسل إلى شمس الدين [الذي كان قد تم تعيينه بواسطة السلطان العثماني في اتفاقية أوشي والذي كان في ذلك الوقت موجوداً في بنغازي من أجل مشاركة السكان في الاحتفال بمناسبة انسحاب تركيا من ليبيا] وكذلك إلى القناصل الأجانب بطرابلس نسخاً من مضبطة سكان ورفلة الذين أعلنوا فيها استعدادهم للدفاع عن الحرية التي منحت لهم بواسطة السلطان العثماني.. كما قام سليمان الباروني بإرسال رسالة أخرى إلى علي كعبار قائمقام غريان يشكو له فيها عدم اهتمام الحكومة الإيطالية بمطالبه حيث أنه لم يتلق إجابة عن مراسلاته معها.. مبدياً رغبته في التوسط له من جانبه للحصول على مقابلة كل من الجنرال راني RAGNI والجنرال شيانشيو CIANCIO في الرابطة. وعلى كل حال فإن جميع تلك المراسلات لسليمان الباروني لم تحقق أيّة نتائج إيجابية له.. ومن ثم فقد خابت آمال سليمان الباروني في تحقيق رغبته حتى إنه طالب بالدخول مع حكومة المستعمرات الإيطالية في مفاوضات لتسفير وفد مفاوضين بحراً من طرابلس إلى روما لمناقشة كافة الأمور المتعلقة بتأسيس إمارة مستقلة بالجبل مع الوزير بيرتولليني BERTOLINI [وزير المستعمرات]. وحتى بعدما حصل الباروني على صلاحية إرسال مبعوثيه للتفاوض مع الحكومة الإيطالية بشرط أن يكونوا مصحوبين بأحد المسؤولين الطليان، لم يتم سفر المفاوضين في آخر

لحظة.. مما جعل الباروني يقترح على آمر طرابلس في 26 يناير 1913 م إمكانية سفر الوفد إلى تونس ثم إلى باريس بدلاً من روما للتفاوض مع السفير الإيطالي وشخصية أخرى هامة يتم تعيينها بواسطة الحكومة الإيطالية المركزية.. وذلك كحل للنزاع والخلاف الذي ساد بين سكان الجبل حول سفر الوفد إلى روما، كما كان سليمان الباروني أيضاً يرى إمكانية اختيار الكونت سفورزا Cont. SFORZA الذي يعتبر ملماً بكافة الأمور حول تلك القضية بالإضافة إلى أنه كان يتمتع بثقة كافة زعماء قبائل الجبل واحترامهم وذلك من أجل الوصول إلى اتفاق بين الطرفين. ولكن حكومة طرابلس كانت تعرف الموقف في الجبل جيداً، فقد كانت مقتنعة بأن المشكل الحقيقي لهذا التغيّر الذي يجب أن يتم البحث فيه.. هو موقف الباروني المتصدع [إذْ أنه قد حدث أنْ تنكر له صراحة بعض زعماء القبائل أثناء المؤتمر الذي عقد في 26 يناير بيفرن] ويرجع ذلك إلى ما يعانيه من نقص المواد الغذائية بالإضافة إلى الظروف السيئة القاسية التي كان يعيشها السكان مما جعلهم يتخلون عنه تدريجياً، وقد تبع ذلك أن قام الوفد باتخاذ طريق خفية إلى تونس بدلاً من الذهاب إلى طرابلس، وقد كان ذلك الوفد من المفاوضين يجب أن يضم إليه يوسف خريبيشة بالإضافة إلى موسى قرادة وعلى الشنطة إلاّ أنه لم يستطع السفر معهم لانشغاله المستمر في بن قردان حيث كان يقوم بالإشراف على إرسال كافة التموينات اللازمة إلى معسكرات المقاتلين.

وقد أشارت الصحف التونسية الصادرة في 9 فبراير 1913 م إلى نبأ وصول موسى قرادة ورفيقه إلى تونس مما جعل المهندس ديسي DESSI الذي كان يعتبر صديقاً شخصياً لموسى قرادة يبحث عنه بمجرد تلقيه خبر وصول الطرابلسيين، كما بعث بتلغراف إلى الكونت سفورزا SFORZA الذي كان قد وصل إلى مرسيليا يعلمه فيها بذلك الخبر... وخلال بضعة أيام قام الأخير بعقد اجتماع مع كل من موسى قرادة وعلى الشنطة، وكانت من بين المستندات الرسمية التي بقيت في حيازة سليمان الباروني حتى عام 1921 م، حيث استطعت الاطلاع عليها، ما يشير إلى مهمة الوفد الذي ذهب لمقابلة السفير الإيطالي في باريس وذلك من أجل إبلاغه بما يلي:

1 ـ المطالبة بالاستقلال الذاتي للجبل والساحل الغربي مع اعتبار مرسي زواغة عاصمة لتلك الإمارة المستقلة.

2 ـ في حالة عدم الموافقة على ذلك المطلب لأي سبب من الأسباب فيمكن مناقشة شكل آخر من أشكال الحماية يكون مشابهاً لتلك التي تبسطها بريطانيا على مصر.

3 ـ إذا ما تم رفض المطلب الثاني أيضاً.. فيجب المطالبة بالحصول على اعتراف بموجبه يتم الحصول على منح بعض التسهيلات الخاصة منها منح الاستقلال لكافة المناطق المذكورة أعلاه كما هو معمول به في بقية الدوائر القضائية بالإقليم الطرابلسي.

وعندما وصل كل من موسى قرادة وعلى الشنطة يرافقهما المهندس ديسي DESSI إلى مرسيليا، نصحهما الكونت سفورزا SFORZA بضرورة الذهاب إلى روما بدلاً من باريس، وهكذا فقد واصل الوفد سفره إلى روما يرافقهما المهندس ديسيDESSI الذي قدمهما إلى السنيور بيرتولليني وزير المستعمرات الايطالية في روما بصفته مترجماً للمفاوضين أرسله الباروني معهم.

وبعد أن تم استقبال كل من موسى قرادة وعلي الشنطة للوزير قام الأخير بإجراء اتصال مع الحاكم الجنرال RAGNI «راني» بطرابلس حيث أخبره بأن المحادثات الرسمية قد أجريت مع كل من المبعوثين [الذين كانوا قد تقدموا بمقترحات تبدو معقولة لوزير المستعمرات] لهذا فقد طلب الوزير من الجنرال RAGNI حاكم طرابلس بضرورة إيقاف جميع العمليات الحربية التي كان قد تم التخطيط لها من قبل وذلك لمدة أسبوعين.. كما طالبه بالسماح لكل من مبعوثي سليمان الباروني بالرجوع إلى روما خلال 15 يوماً من رجوعهم إلى المستعمرة مصحوبين بزعماء آخرين، وذلك من أجل الوصول إلى اتفاق نهائي.

وفي الواقع أنه لم يحدث ما يعكرّ تلك الهدنة القصيرة، فلم تحدث مطلقاً غارات نهب وسلب ولا أيّة تصرفات عدائية ضد السكان الخاضعين للسلطة الايطالية أوْ ضد القوات العسكرية الايطالية التي كانت تحت مراقبة كل من قوات

الباروني والشيخ «سوف» المنتشرة في كل من السهل والجبل.. ولكن في الواقع أن تلك الهدنة لم تستمر طويلاً حتى استعادت حكومة طرابلس حريتها المطلقة في القيام بتنفيذ العمليات الحربية التي كان قد تم تأجيلها من قبل.

وفي يوم 12 مارس 1913 م رجع كل من الكونت سفورزا والمهندس ديسي DESSI إلى تونس وذلك بعد الوصول إلى اتفاق مبدئي بين المفاوضين الطرابلسيين والوزير بيرتولليني، وقد سافرا معاً بسرعة إلى جنوب تونس من أجل القيام بالمهمة التي كان الوزير قد كلفهما بها والتي كانت تشمل حثاً ومراقبة لكافة المهام التي سيقوم بها كل من موسى قرادة وعلي الشنطة اللذين كانا قد وصلا إلى تونس معهما.. وقام على الفور بالاتصال مع جميع زعماء القبائل المنشقين وذلك من أجل إبلاغهم بكافة الأمور التي تم الاتفاق عليها مع وزير المستعمرات بروما، بالإضافة إلى دعوتهم للمشاركة في الاجتماعات القادمة، لكن عندما وصل علي الشنطة إلى بن قردان في يوم 22 مارس وذلك من أجل الاتصال بسليمان الباروني لكي يخبره عن نتائج المفاوضات.. كانت جميع الأمور قد تأزمت في الجبل الغربي.

العمليات العسكرية ومعركة الأصابعة:

على الرغم من فشل مهمة كل من علي الشنطة وموسى قرادة في القيام بإجراء مزيد من المفاوضات مع السلطات الإيطالية.. إلاّ أن ذلك لم يجعل سليمان الباروني يتوقف عن مواصلة الكتابة، بل استمر في الاتصال بكافة المسؤولين بالحكومة الإيطالية، وقد أتيحت لي الفرصة للإطلاع على كثير من نسخ الرسائل التي كان قد قام بإرسالها إلى كل من الجنرال RAGNI، رئيس الوزراء الإيطالي، رئيس مجلس السناتو [الشيوخ]، رئيس مجلس النواب وإلى بقية المسؤولين في السلطة الايطالية... بالإضافة إلى مراسلاته إلى كثير من أعيان القبائل وزعمائها الخاضعين للحكومة الإيطالية بطرابلس وكان من بينهم كل من الهادي كعبار في غريان وعلي بن شعبان من زوارة وعلي بن تنتوش وغيرهم.

إن ازدياد الموقف سوءاً بين القوات الإيطالية وبقية المحلات المنشقة ضد السلطة الإيطالية... أدى إلى ازدياد غارات النهب والسلب بالإضافة إلى الاعتداءات المسلحة البسيطة ضد المواقع الأمامية للقوات الإيطالية.. مما جعل من المتعذر جداً تحديد هوية الجماعة التي قامت بتلك الهجمات، وكان من أسوأ تلك الغارات، تلك التي حدثت على إقليم غريان (الأراضي الغريانية) بتاريخ 15 فبراير 1913 م، حيث قامت أعداد كبيرة من المقاتلين التابعين لمعسكر الرابطة بالهجوم على أحد نجوع الأهالي الخاضعين للسلطة الايطالية فلم يستطيعوا مقاومة تلك القوات مما جعلهم يلوذون بالفرار أمام هجمات المغيرين تاركين وراءهم غنائم هائلة استولى عليها المهاجمون بسهولة. أما الهجوم الآخر الذي لا يقل عنفاً وشراسة عن الهجوم الأول فهو ذلك الهجوم الذي كان قد وقع بعد مضي بضعة أيام على الهجوم الأول على أراضي الكليبة والقاطش. هذا وقد أصبح الموقف أكثر سوءاً بسبب أن مفاوضات الصلح التي كانت قد بدأت بواسطة المكتب السياسي بطرابلس قد أجهضت تماماً.. على الرغم من أن الوزير بيرتولليني كان قد أصدر أوامره بتأجيل القيام بالعمليات العسكرية بتاريخ 3 مارس بسبب زيارة وفد المفاوضات الذي أرسله سليمان الباروني إلى روما.. إلاّ أن فترة الهدنة تلك والتي أعلنت لمدة 15 يوماً بين الطرفين لم يتم التقيّد بها بواسطة المقاتلين التابعين لسليمان الباروني مما جعلها بدون فائدة.

في الواقع أن ازدياد الهجمات العدائية ضد القبائل الخاضعة للسلطة الحكومية الايطالية.. جعل زعماء تلك القبائل يطالبون الحكومة الايطالية بضرورة القيام بعمل حاسم للحد من تلك الهجمات العنيفة ضدهم. ونتيجة للهجوم العنيف الذي قام به أولاد بوسيف والمشاشية ضد مواقع القوات الايطالية في تيبدوت أثناء ليالي 18، 19 مارس أصدر وزير المستعمرات أوامره لحكومة طرابلس باتخاذ كافة الاجراءات المناسبة.. وبالفعل فقد تم اتخاذ كافة الاستعدادات اللازمة مساء يوم 21 مارس حيث بدأت القوات الايطالية العمليات العسكرية ضد زعماء القبائل المتمردين على السلطة الحكومية في صباح 23 مارس، حيث كان الهدف المقصود من وراء القيام بالعمليات العسكرية ضد

المتمردين في الجبل، هي السيطرة الكاملة على خط المرتفعات الواقع بين وادي جندوبة والأربعة وسرت لكي يتم التوجه منه إلى الأصابعة لمطاردة المتمردين «المجاهدين».. الذين كانوا قد انقسموا في كل من المنطقة الأخيرة ومعسكر الرابطة إلى فريقين بلغ تعدادهما حوالى ثلاثة آلاف مقاتل [3000 مقاتل] تحت قيادة كل من: سليمان الباروني، خليفة بن عسكر، بوبكر قرزة وأحمد الصيد؛ أما القوات الإيطالية فقد كانت بقيادة الجنرال ليكوي LEQUIO حيث تم تقسيمها إلى ثلاث فرق عسكرية.. الفرقة الرئيسية الأولى كانت بقيادة الجنرال ليكوي LEQUIO نفسه، أما الفرقتان الثانية والثالثة فهما عبارة عن فرق مساعدة للأولى التي غادرت مقرها في تيبدوت عند الساعة السادسة صباح يوم 23 مارس وهي على أتم الاستعداد للقيام بعمليات المناورة والهجوم. وبمساعدة قصف سلاح المدفعية لمواقع المقاتلين في الجبل استطاع جنود المشاة الموجودين في المقدمة التحرّك بكل سهولة مما أدى إلى سقوط الهنشير بالإضافة إلى بعض المواقع الأخرى التي كان يحتلها المقاتلون الجبليون في أيدي جنود القناصة وفرقة جنود الجبال، مما شجع القوات الايطالية على عدم التوقف بل الاستمرار في طرد رجال المقاومة الذين اتخذوا بعد انسحابهم من المناطق الوعرة نقاطاً دفاعية، لكن جنود القناصة وفرقة الجبال استطاعوا التقدم إلى الإمام حيث وصلوا في تمام الساعة التاسعة صباحاً من نفس اليوم إلى ظهرات، أقيرة ثم هضبة قصمات. وقد حاول المقاتلون المحليون الالتفاف على يسار القوات الايطالية أثناء تقدم تلك القوات إلى الإمام إلاّ أن محاولتهم فشلت حيث استطاعت فصائل القوات الإيطالية الأمامية التصدي لذلك الهجوم حيث قامت بالتركيز على الأهداف الرئيسية التي كانت تشمل الاستيلاء على المرتفعات الجبلية التي تسيطر على حوض الأصابعة، وعلى الرغم من إطلاق النيران المكثف من جانب المقاتلين المحليين إلاّ أن الجنود الطليان استمروا في زحفهم حتى وصلوا تلك القمة الجبلية المحيطة بالأصابعة بمساعدة قذائف سلاح المدفعية، مما جعل تلك القوات تتمكن من إبادة جميع محاولات المقاومة التي قام بها المقاتلون المحليون حيث أجبروا على الفرار تلاحقهم قوات من المجندين الليبيين تساعدها قوات من الفرسان.

وبينما وصلت الفرقة الأولى بقيادة الجنرال ليكوي LEQUIO إلى تحقيق الهدف، كانت الفرقة الثانية بقيادة الكولونيل بونتريمولي PONTREMOLI تتخذ مواقع دفاعية لها في كل من قارة توتا وقصر المنقوش وذلك من أجل البدء في ضرب مواقع المقاتلين المحليين الذين كانوا يتمركزون في المرتفعات الجبلية البيضاء كما يسميها الطليان تمييزاً لها عن المرتفعات الجبلية السوداء MONTRUSC NERO بالإضافة إلى الرابطة.. وبالرغم من وعورة أراضي تلك المنطقة إلاّ أن القوات الايطالية استمرت في التقدم ببطء بدون توقف حتى وصلت إلى قصر المنقوش حيث وجد قائد الفرقة أن ثمة قوات قليلة للمقاتلين المحليين لا زالت حاضرة متفرقة بتلك المنطقة، مما جعله يصدر أوامره للقوات الايطالية بالزحف إلى الأمام للاستيلاء على المرتفعات الجبلية البيضاء، وقبل وصول الفرقة الإيطالية إلى منحدرات تلك المرتفعات قام الجنود الموجودون في المقدمة بإطلاق نيران كثيفة على المقاتلين المحليين الذين كانوا متربصين في ثنايا منحدرات المرتفعات، مما أدى أيضاً إلى تدخل سلاح المدفعية الذي قام بقذف تلك الخلايا المتمركزة من المقاتلين بوابل من القذائف النارية أجبرتهم على الفرار وترك مواقعهم. هذا وقد استطاعت الفرقة الثانية بقيادة الكولونيل بونتريمولي PONTREMOLI من حيث إنجاز المهمة المكلفة بها تحقيق السبق على الفرقة الثالثة. التي كانت بقيادة فابري FABBRI الذي كان عليه الوصول إلى السهل أولاً.. ثم التوجه منه بعد ذلك إلى تحقيق المهمة المكلف بها التي تشمل الاستيلاء على الرابطة والمرتفعات الجبلية السوداء، ولكن عندما علم الكولونيل بونتريمولي PONTREMOLI من دورية الاستطلاع، أن الفرقة العسكرية الثالثة بقيادة فابري FABBRI لا تزال بعيدة من حيث المسافة عن الوصول إلى هدفها، أمر فرقته بالتقهقر لتحقيق تلك المهمة بدلاً من الفرقة الثالثة. وترجع الأسباب في الواقع التي جعلت الفرقة الثالثة تتأخر، إلى أنه قد حدث في صباح 23 من نفس الشهر أن تم إرسال حوالى نصف فيلق فرسان الخيالة من أجل مساعدة دوريات الاستطلاع التي كان قد تم إرسالها إلى شرق المرتفعات الجبلية السوداء لرصد قوات المقاتلين المحليين، ولكن أثناء قيامها بتلك المهمة اشتبكت معها في معركة حامية، وعندما شعر قائد الفرقة بمهاجمة

قوات المقاتلين المحليين بدأ في التقدم إلى الأمام حيث تم وضع كل من فرقة الباقوني أو الطاووس وفرقة الساحل في المقدمة تليها بطارية الجمالة (المهاريستا) ثم فرقة المجندين الأريتريين بالإضافة إلى فرقة الاحتياطي التي تكوّن في الغالب الفرقة العسكرية الثالثة. وبسرعة خاطفة قام المقاتلون المحليون بمهاجمة القوات الايطالية وبعد مضي خمس وأربعين دقيقة من القتال الضاري بين الطرفين، استسلمت قوات الاحتياطي حيث انسحبت تاركة وراءها الفرقة العسكرية مكشوفة بدون حماية مما جعل وحدة الجنود الأريتريين تقوم بحمايتها ضد الهجمات الشرسة التي كانت تشنها قوات المقاتلين المحليين، وبالفعل فقد أظهرت وحدة الجنود الأريتريين شجاعة نادرة في قيامها بمطاردة قوات المقاتلين المحليين حيث اضطر الجنود الأريتريون إلى إطلاق النيران على أولئك المقاتلين المندفعين بحماس من بعد لم يتجاوز مائة متر وأحياناً أقل من ذلك، وقد كانت اللحظة الحاسمة والصعبة معاً هي تلك التي واجهت فيها الفرقة العسكرية الثالثة قوات هائلة من سكان محلات الجبل التي أخذت تهاجمهم بشراسة من جميع الجهات، مما جعل قائد الفرقة يضطر لإصدار أوامره بالانسحاب الذي تم بكل دقة ونظام من قبل جميع الوحدات العسكرية، وقد سرى مفعول ذلك الأمر أيضاً على وحدة المجندين الأريتريين ولكن عندما ازدادت خطورة الموقف صعوبة واصل المجندون الأريتريون زحفهم لتحقيق الهدف، حيث قاموا بشن هجوم أصبح مشهوراً في حوليات الحملة العسكرية الايطالية على ليبيا، حيث استطاعوا أن يربكوا قوات المقاتلين المحليين التي انهارت قواها أمام تلك الهجمات الشرسة للأريتريين مما دفعهم للفرار بينما استغل المجندون الأريتريون تلك الفرصة لملاحقتهم وهم يصوبون إليهم حراب البنادق، مما بعث الحماس في نفوس بقية جنود الفرقة العسكرية الثالثة الذين أخذوا يلاحقون المقاتلين المحليين الذين كانوا قد لاذوا بالفرار بدون حماية، مما جعل فابري FABBRI قائد الفرقة يصدر أوامره بسرعة إلى رتل الجنود لاستئناف المسيرة إلى الرابطة لكي يتم الاتصال بالفرقة العسكرية الثانية بقيادة الكولونيل PONTREMOLI مما أتاح للفرقة التخلص من القيام بالمهمة التي كانت قد تم تكليف الفرقة الثالثة بإنجازها، لهذا فقد عادت الفرقة العسكرية

الثالثة لتعسكر حول بيركوكا حيث تعرضت لمضايقات نيران بنادق المقاتلين المحليين. وعلى الرغم من انعدام الاتصال بين الفرقتين العسكريتين الثانية والثالثة بسبب المسافة الطويلة التي كان قد قطعها قائد الفرقة الثالثة بالإضافة إلى المعركة التي كان قد خاضها، إلاّ أنه استطاع بعسكرته حول بيركوكا واشتباكه مع المقاتلين المحليين خاصة تلك المناوشات التي دارت بينه وبين قوات معسكر الرابطة، أن يجعل الفرقة الثانية بقيادة فابري FABBRI تمهد الطريق أمام قوات الكولونيل PONTREMOLI للوصول بسهولة إلى السيطرة على كل من قارة توتا والمرتفعات الجبلية البيضاء مما أدى إلى تحقيق النصر في معركة الأصابعة.

وعندما أصدر الأمر LEQUIO قائد الفرقة العسكرية الأولى أوامره السريعة التي كانت تقضي بتنظيم الخطوط الخلفية للجبهة وحمايتها من أجل أن يتم الاتصال بين جميع الطوابير العسكرية ببقية الفرقة العسكرية، فقد تم في اليوم التالي لصدور تلك الأوامر وبالضبط يوم 24 مارس احتلال قصر الأصابعة بعد مقاومة عنيفة، وذلك بعد أن خسر المقاتلون المحليون في اليوم السابق 23 مارس حوالى ثلاثمئة وخمسين قتيلاً بالإضافة إلى أعداد كثيرة من الجرحى، كما تم جمع مئات البنادق من أرض المعركة، أما خسائر القوات الايطالية فقد كانت عبارة عن مقتل ضابطين وأربعة وثلاثين جندياً، أما عدد الجرحى فقد كان حوالى مئتين وخمسة جنود منهم تسعة ضباط. وفي يوم 25 من نفس الشهر تم الاستيلاء على كلكلة، هذا وقد تم الوصول إلى سوادنة يوم 26 مارس بينما تم رفع العلم الإيطالي يوم 27 مارس وذلك على قلعة يفرن المقر القديم للمتصرف التركي. وبذلك يمكن القول أن القوات الايطالية قد استطاعت أن تنجز مهمة احتلال الجبل، مما جعل زعماء المقاومة يلوذون بالفرار حيث اتجه كل من سليمان الباروني، ساسي خزام وخليفة بن عسكر يرافقهم بعض الزعماء الآخرون غرباً، أما أولاد بوسيف والمشاشة فقد اتجهوا جنوباً، وبذلك تم للقوات الايطالية السيطرة على الجبل بعد أن ذابت المقاومة المسلحة في جميع المحلات بالجبل ضد القوات الايطالية الغازية.

وفي كلكلة استلم الجنرال «ليكوي» LEQUIO رسالة من سليمان الباروني

يطلب منه فيها «ضرورة إيقاف كافة الأعمال العدوانية في الجبل لكي يتم عقد مؤتمر للزعماء بالجبل لمناقشة إمكانية التوصل إلى اتفاق» هذا وقد أدعى الباروني في رسالته إلى الجنرال المذكور عدم مسؤوليته عن الهجوم الذي قام به لمقاتلون المحليون ضد القوات الايطالية في تبدوت والذي أدى في الواقع إلى إلغاء الهدنة بين الطرفين، كما أنه يوضح في رسالته أيضاً عدم ممانعته حول منح الاستقلال الذاتي للجبل الذي كانت الحكومة قد اعترفت به، كما يبدو في الترجمة الحرفية للفقرة الواردة في الرسالة المذكورة كما يلي:

بسم الله. . .

قبل كتابة هذه الرسالة، وصل علي أفندي الشنطة أحد المفاوضين الذين ذهبوا إلى روما. . . وقد أخبرني عن كل ما دار هناك من مناقشات مع الوزير الذي أبدى قبوله لمطالبنا. . وعلى كل حالٍ فنحن نأسف جداً لما حدث. . . حيث لم نستلم أي تلغراف من تلك التلغرافات التي أرسلت لنا حول ذلك الموضوع، ولكن يبدو أن تلك التلغرافات قد تم حجزها لربما في مدينة تونس أوْ في الذهيبات وعلى كل حالٍ فقد حدث ذلك بمشيئة الله وقدرته. . فإنني أقسم على أن السبب الرئيسي وراء نشوب تلك المعركة يرجع إلى قلة من رجال أولاد بوسيف بمساعدة بعض المقاتلين الآخرين. . . فإنا شخصياً لم أرتكب أي عمل عدواني ضدكم سوى اتخاذ موقف المنازع حيث أني كنت أنتظر نتيجة المفاوضات التي قام بإجرائها الوفد الطرابلسي في روما مع وزير المستعمرات، ولكن القدر كان حاسماً. . وعلى كل حالٍ فإنا ليس لديّ مانع في قبول الاستقلال الذاتي للجبل الذي كانت قد تعهدت الحكومة بتحقيقه، لهذا فليس لدى حاجة إلى مزيد من التفكير في ذلك ولا إلى دعوة بقية الزعماء إلى عقد اجتماع بخصوص ذلك، فأنا أريد من معالي سعادتكم أن تكون وسيط بيننا وبين الحكومة الايطالية الموقرة في تقديم اعتذارنا، كما أرجو منك أن تعلمني عن حقيقة ذلك الموقف. . ».

وقد رد الكولونيل LEQUIO في بلاغ مقتضب على رسالة سليمان الباروني بينما كانت قواته تواصل مسيرتها نحو يفرن بدون مقاومة، مما فرض

على الزعماء الذين كانوا يرغبون في العيش بسلام ضرورة رفع الأعلام البيضاء أمام القوات الايطالية الزاحفة.. أما الباروني وساسي خزّام مع بقية الزعماء الآخرين فقد تم إقصاؤهم عن البلاد، وعلى الرغم من أن الأمور كانت تسير لصالح القوات الايطالية في الجبل، إلاّ أن وزير المستعمرات ناقش مسألة الجبل مع حكومة طرابلس حيث أبدى موافقته مبدئياً على جزء من المشروع الذي يطالب به المفاوضون الطرابلسيون على الأقل. ففي يوم 23 مارس نفس اليوم الذي نشبت فيه معركة الأصابعة أرسل السنيور بيرتولليني وزير المستعمرات الايطالية تلغرافاً إلى الجنرال RAGNI يعلمه فيه موافقته الشخصية على تأسيس مقاطعة في الجبل تكون ذات نظام خاص بحيث يتم تعيين الزعماء فيها بواسطة الانتخاب.. ولكن إجابة قائد القوات الايطالية بطرابلس كانت عبارة عن الرفض التام لمقترحات الوزير، مما جعل ذلك التصرف من قبل قائد القوات الايطالية من الأخبار السيئة التي لم تفرح سليمان الباروني وغيره من الزعماء المهتمين بذلك الأمر، ومن جهة أخرى نجد أن سكان الجبل قد انقسموا حول تأسيس تلك المقاطعة، فالبعض يؤيدها.. أما البعض الآخر فيرفضها خاصة أنهم يعتقدون أن تأسيس مثل تلك المقاطعة المستقلة ذاتياً لا يمكن أن يتم بدون اعتراف بل وإشراف تام بواسطة الحكومة الايطالية المركزية على الرغم من زعامة سليمان الباروني للمقاطعة. لهذا وغيره من الأسباب الأخرى فإن تأسيس مقاطعة مستقلة بالجبل لا يعتبر ذا أهمية حقيقية بالنسبة لهم. وعلى كل حالٍ فلربما كان الغرض من تصريحات وزير المستعمرات الايطالية المتعلقة بالجبل سياسياً تهدئة سكان الجبل خاصة أن نتائجها ستكون سيئة على بقية مناطق الإقليم الطرابلسي حسب وجهة نظر الحكومة الايطالية نفسها ذلك أن تحقيق مثل تلك الوعود يجبر الحكومة الايطالية فيما بعد إلى منح الاستقلال الذاتي لكافة مقاطعات الإقليم الطرابلسي.. بالإضافة إلى أن عملية انتخاب الزعماء المحليين بتلك المناطق يعتبر من العوامل التي سوف تقلل من سيطرة الحكومة، فلربما قد يؤدي ذلك إلى تعيين شخصيات بارزة تكون شديدة الولاء والتمسك بسليمان الباروني ومضادة للحكومة الايطالية مما سوف يؤدي إلى نتائج سلبية لن تكون لصالح تهدئة سكان المستعمرة إطلاقاً.

وعلى الرغم من امتناع حكومة طرابلس عن تأسيس مقاطعة للجبل مستقلة ذاتياً، إلاّ أن وزير المستعمرات بيرتولليني ظل مقتنعاً بأن القاعدة الأساسية للمفاوضات لم تمانع في اختيار لائحة قرارات لتدارك الخوف مما يترتب عن ذلك من عواقب.

وبعد اجتماع سليمان الباروني بزعماء قبائل العلالقة، العجيلات، الصيعان والنوائل الذين ناقشوا معه كافة الأمور خاصة فيما يتعلق بخضوع تلك القبائل جميعاً واستسلامها للسلطات الحكومية الايطالية بطرابلس، أعلن سليمان الباروني رغبته في الذهاب إلى القسطنطينية فترك البلاد متوجهاً إلى تونس، وعندما وصل الذهيبات طلب مقابلة الجنرال بستور PISTOR الذي كان يشغل منصب قائد الاقليم الجنوبي التونسي، وعندما لم يحصل على مقابلة الجنرال الفرنسي واصل سفره براً بواسطة سيارة إلى صفاقس ليأخذ القطار من هناك إلى تونس العاصمة التي وصل إليها يوم 9 إبريل 1913 م، حيث قدمه المهندس ديسي DESSI إلى الكوماندانور بوتسيني BOTTESINI قنصل ايطاليا، حيث طلب سليمان الباروني منه إمكانية إعادة المفاوضات مع روما، إلاّ أن القنصل أجابه بضرورة الخضوع وتسليم السلاح للحكومة الايطالية.. وفي تونس عقد سليمان الباروني مؤتمراً صحفياً مع بعض الصحف الفرنسية أعلن فيه تمسكه بالمطالبة بجبل نفوسة، مما جعل الصحف الصادرة في تلك الفترة تشير في عناوينها إلى أن المفاوضات من أجل استقلال الجبل قد باءت بالفشل مع حكومة ايطاليا، مما أدى إلى استئناف الكفاح المسلح.

وفي تلك الأثناء طلب الباروني مقابلة وزير المستعمرات الايطالية إلاّ أنّ طلبه رفضَ، حيث أبلغه المهندس ديسي DESSI بأن سفره إلى روما سيكون مستبعداً على الإطلاق.

وأخيراً حاول سليمان الباروني الحصول على العفو العام من الجنرال RAGNI حاكم الاقليم الطرابلسي، وذلك بالسماح له بالعودة مع رفاقه إلى اقليم طرابلس، لكن الجنرال رفض ذلك، كما أنه لم يوافق على منح سليمان الباروني أي معاملة خاصة، لأنه كان يعتبر سليمان الباروني أحد المحرضين ضد

الحكومة الايطالية، لذلك فإن عودته إلى المستعمرة سوف تؤدي إلى إثارة كثير من المشاكل. ولكن رغم ذلك فقد عاد سليمان الباروني متحدياً في ذلك قرارات حكومة روما، وعندما وصل إلى بن قردان ادعى باعتزاز وفخر أنه سيكون عنصراً محرضاً للسكان للقيام بثورة ضد الحكومة الايطالية بطرابلس. إن مثل تلك التصريحات في الواقع جعلت وزير الخارجية الايطالية خلال منتصف شهر مايو في نفس السنة يتصل بالحكومة الفرنسية طالباً منها إبعاد سليمان الباروني عن الحدود الليبية ـ التونسية.. بل القيام باعتقاله في تونس.. إلاّ أنه في الواقع لم يبق سوى بضعة أيام بتونس حيث غادرها للقيام برحلة إلى بعض العواصم الأوربية زار فيها كلاً من برلين، ڤينا، بوخارست ثم القسطنطينية، ولم يعد إلى تونس إلاّ في شهر مارس 1914 م، حيث قام باستدعاء أخيه أحمد الذي كان يعيش في جادو لرؤيته، حيث أخبره بامتنانه من الحكومة العثمانية التي منحته عضوية مجلس الشيوخ العثماني ذلك اللقب الذي كان يعتبر من اسمى الألقاب التي كان يطمح إلى الوصول إليها الباروني [يبدو أن الحكومة العثمانية قد وعدت الباروني بمنح ذلك اللقب له بشرط استعداده لمواصلة المقاومة في الجبل من جديد]. وعلى كل حالٍ فيبدو أن الهدف من وراء عودة سليمان الباروني إلى تونس ليس لرؤية أخيه فقط بل كان من أجل تحقيق مشاريعه القديمة.

أما عن أهم مؤلفات الباروني خلال الحرب الايطالية ـ التركية، فقد صدر له في القسطنطينية مع نهاية عام 1913 م كتيب صغير باللغتين العربية والتركية تحت عنوان «مذكرات المجاهد الكبير سليمان الباروني أثناء الحرب المقدسة». وقد نال سليمان الباروني على تلك البطولات التي نسبها إلى نفسه دبلوم المدالية الذهبية من «الجمعية الأكاديمية للتاريخ العالمي» Sociètè Academique D'histoire international في باريس يوم 6 مايو 1914 م، وفي الواقع فقد كان الهدف من وراء نشر ذلك الكتيب الذي صدر بواسطة سليمان الباروني في القسطنطينية المناداة بتأسيس حكومة مستقلة في الجبل، بالإضافة إلى تبرئة سليمان الباروني من جميع التهم التي كانت قد وجهت إليه من البعض.. وقد

كانت تلك التهم تدور حول اعتزاله الحرب ضد الايطاليين مقابل حصوله على مبلغ من المال، وكذلك تهمة استيلائه على الأموال المخصصة لرجال المقاومة في الجبل.

ولكن الواقع هو أن سليمان الباروني كان رجلاً طموحاً ولم يوصم أبداً طيلة حياته.. بأنه كان شخصاً طماعاً يغريه المال كما تبرهن جميع المراسلات التي تمت بينه وبين كثير من الشخصيات البارزة المعاصرة له.. والتي كان أغلبيتها يتولى مناصب قيادية هامة في حكومة طرابلس... هذه المراسلات جميعاً تشير إلى نزاهة سليمان الباروني وأمانته كما تؤكد بصفة خاصة مراسلاته مع الكونت سفورزا مدى الاحترام الذي يكنه لسليمان الباروني نظراً لما كان يتمتع به من أمانة ونزاهة.